سر العبقـــرية فى المتنبى

بقلم طه طه عبد الفتاح

مدرس أول للغة العربية بنها الثانوية

كما لا ينبت الزرع إلا من بذر ، ولا ينبعث الضوء إلا من مصدر ، كذلك لا تنشأ العبقرية إلا من أصل . والأصل الذى تقوم عليه العبقرية هو الاستعداد الفطرى ، الذى يوهب للإنسان وهو فى طور تكونه ، ويولد معه ساعة يولد ، ويشرف معه على هذه الدنيا .

وكما لا تؤتى البذرة ثمرتها إلا إذا وجدت حولها ما يهيىء لها الإفراخ ، وما يسهل لفرخها النماء حتى يبلغ أشده ، ويُؤتى أكله : كذلك لا ينفطر الاستعداد الفطرى عن العبقرية ، إلا إذا صادفه ما يقويه وينميه حتى يتكامل ، ويتاح له أن يقوم بما هيأه الله له .

وحينئذ لا غنى للعبقرية عن الاستعداد الفطرى ، ولا عن الظروف التى يزكو فيها ويترعرع . فكم فى الناس من خلق ليكون شاعرا مفلقا ، أو سياسيا داهية . أو قائدا بارعاً ، أو غير ذلك من المواهب التى تتجلى فيها العبقرية ، ولكن قضت عليه الأحوال القاهرة أن يتجه إلى طريق غير طريقه . فحرم شرف النبوغ ، وحُرِم الناس الانتفاعَ بعبقريته . ولله فى خلقه شئون .

أما الاستعداد للعبقرية الشعرية ، فهو الخصائص التى رزقها الشاعر فى قواه النفسية المتصلة بفن الشعر اتصالا وثيقا .

تلك القوة النفسية هى : الإدراك ، والشعور ، والخيال ، والمقدرة على الأداء ، وعلى قدر ما تصطبغ به هذه القوى من خصائص ، وعلى قدر تفاوت الشعراء فى هذه الخصائص ، تكون درجة الشاعر فى فن الشعر ، وتكون منزلته بين الشعراء .

وتلك الخصائص الموهوبة للقوى النفسانية هى أسرار النبوغ والعبقرية ، وهذه الأسرار هى ما نحاول أن نفتش عنه فى نفس المتنبى ، مستعينين بما فى ديوانه من بيان ، لعله يزيح لنا الستار عن تلك النفس البارزة ، التى كانت منذ منذ عشرة قرون تنفث السحر فى الناس ، والتى مافتىء سحرها يلعب بالألباب .

عبقريته الفكرية وأسرارها : —

ظهر أثر تلك العبقرية ، فى هذه الطائفة الفاخرة ، من أشعاره الحكمية ، التى وجدت لها فى أفئدة الناس قبولا حسنا . فاستظهرها الكثيرون ، ورددتها الألسن فى كل مناسبة ، وضربت بها الأمثال ؛ كما جرت بها أقلام الأدباء تضمينا ، واقتباسا واستدلالا .

لقد عرض زهير بن أبى سلمى للحكمة ، وعرض لها أبو العتاهية ، من قبل المتنبى ، وعرض لها أبو العلاء المعرى من بعده . ولكن أبا الطيب المتنبى يفضل زهيراً بالدقة ، ويفضل أبا العتاهية بالدقة والاستنباط ، وهو فيها هادى أبى العلاء وإمامه .

حكمة زهير قريبة الغور ، لا تحتاج إلى كثير من دقة الملاحظة ، وثقوب البصيرة ؛ وما كانت إلا وليدة التجارب الهينة الخفيفة غير المعقدة ؛ فليس فيها غوص إلى خفايا النفوس ، وأسرار الطبائع ، ونحو ذلك مما زاد فى حكمة المتنبى وقد نرى الحكمة مشتركة بين أبى الطيب وزهير ، ولكنك تجد بين الحكمتين خلافا دقيقا ، مصدره أن المتنبى أبعد فى الفكر أمداً من زهير . فزهير يقول :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

والمتنبى يقول :

يَمُوتُ رَاعِى الضَّأْنِ فِى جَهْلِهِ مِيتَةَ (جَالِينُوسَ) فِى طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ وَزَادَ فِى الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

تجد المتنبى يجلى لك الحقيقة فى مثال عقد فيه الموازنة بين الجاهل العريق

فى الجهل بوسائل علاج الأدواء، والعالم الحاذق المضروب به المثل فى علاجها، وحكم أن الموت ضربة لازب لكل منهما، وأن الجاهل قد يزيد على العالم عمرا وسلامة. كان مثلُهُ مثلاً يوضح للناس أن داء الموت ليس له دواء. حتى لِمَنْ يحاربون أسبابه بالعلاج: كالأطباء النُّطُس.

وأما حكمة أبى العتاهية فهى على غزارتها ليس فيها أثر للتفكير والاستنباط، ولكنها - على ما يظهر لمتصفحها - منحصرة فى ناحية واحدة هى ناحية الزهد وذكر الموت والآخرة. وشتان ما بين هذا وحكمة المتنبي.

ولأبى العلاء حكمة، ولكن أبرز شيء فيها - وهو مايتعلق بالمذهب النباتى - ليس من مُستَنْبَطِهِ، بل كان فيه معبرا عن مذهب قَلَّدَ فيه الهنود تقليدا. أمّا ما جرى على لسانه من حكمة المتنبي، فالمتنبي فيها إمامه، وهو تلميذه؛ فلقد كان من أشد الناس إعجابا به، وبشعره، وأحرصهم على قراءته وحفظه وشرحه؛ فامتزجت حكمة المتنبي بفؤاده، وسقَتْ بفَيْضِهَا مراكز التفكير فى مخه، فأعدته لأن يستنبط أمثالها، كما كانت هى بذاتها ذخيرة له، يستمد منها، وينفق من مكنوزها. انظر اليه يقول:

خفف الوطء. ما أظن أديم الـ أرض إلا من هـــذه الأجساد

ألا تراه قابساً قول المتنبي:

يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

إن قواعد الأدب التى ندرسها الآن كثيرا ما تكون سببا فى خطأ الشادين فى الأدب عند ما يحاولون تطبيق خصائص عصر من عصور الأدب على كل شاعر من شعرائه؛ كما تكون سببا فى بخس بعض الشعراء فضلهم ومواهبهم. فعلم الأدب يقرر من خصائص العصر العباسى الثانى ذيوع الفلسفة اليونانية وغيرها، ويقرر أن شعراء هذا العصر قد تأثروا بذلك ثم يحاول بعد تقرير هذه القاعدة أن يُرْجِعَ حكمة المتنبي اليها، سواء أرضى المتنبي بذلك أم لم يرض. وفى هذه المحاولة - على ما أرى - تعسف وجحود لمواهب الرجل وفضله.

لم يقصد المتنبي إلى حكمة أرسطو - مثلا - ويقرضها شعرا : وإلا كان شعره نظما فاترا ، يشبه نظم أبان اللاحق لكليلة ودمنة ، وحكمة المتنبي فى شعره لا يبدو فيها شيء من مثل هذا الفتور والوهن .

وهل دَرَسَ المتنبي فلسفة اليونان وتاثر بها ، فكانت مدرسته التى تخرج فيها . وربى مواهبه حتى نشأت له مَلَكَة نفسية أقدرته على استنباط أشباهها ؟

ليس فيما بين أيدينا من تاريخ المتنبي ما نفهم منه القطع بذلك .

نرى فى القليل من حكمة المتنبي شيئا من المشابهة للحكمة اليونانية ، ولكن أكثرها لا تحس فيه هذه المشابهة . وهذا التشابه فى قليلها لا يدل على أن المتنبي نقله عن اليونان ، أو كان متأثرا بفلسفتهم فيه ، إذ لا يمكن الجزم بذلك إلا إذا كان المنقول عن اليونان شيئا لا يستطيع عقل بشرى أن يستنبطه إلا العقل اليونانى : والقول بمثل ذلك هزل وهراء .

إذن لامانع من اعتبار أنّ هذا التشابه مجرد عرض واتفاق ، وأنّ أبا الطيب قد وصل إلى ما وصل اليه اليونان بهداية فكره المبصر ، وإرشاد عقله المنير : ويدعم هذا الرأى أن الاستقلال جلى فى أكثر حكمة المتنبي . ومن ذا الذى يقول : إن المتنبي لم يكن كاشفا بنفسه عن هذه الحكمة :

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ الدَّ م هَرٍ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا
كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ الْمَرْءِ فى الْقَنَاةِ سِنَانَا

أو لم يكن مُميطاً اللثام عن هذه الحكمة :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ
حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا
فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْبَقَا
وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَه الْحَرْبَا

ومما يؤنس لذلك الرأى، أن المتنبى ما كان يقصد للحكمة قصدا فى كل شعره، فقد كان شاعرا مدّاحا، هجّاء، فخورا، وكانت الحكمة تتخلل قصائده فى المدح والهجاء والفخر، يدعو إليها مقام الكلام، ويسبقها من المعانى ما يكون تمهيدا لها وتوطئة، ولكنه تمهيد يجىء عفوا، بدون قصد ولا تعمل، فيجذب إليه الحكمة جذبا قويا، ويقودها إلى ذهن المتنبى قودا طيّعاً. ومثل هذه الحكمة لا يمكن أن يكونَ من صنع أرسطو، ولا من بنات الملَكات التى غرستها حكمته، ولكنها من نتاج الطبع السليم، ومن وحى الذكاء الثاقب، والملاحظة القوية. وانتظام المركز العصبى لقوة تداعى المعانى.

هذه بعض تجالى عبقرية الفكر عند المتنبى، والافاضة فيها بأكثر من ذلك تستلزم كثيراً من القول، وطويلا من الزمان. وأكتفى بأن أشير هنا إلى أن ديوان المتنبى معرض من أفخم المعارض التى تتجلى فيها العبقرية الفكرية، حتى فى غير الفلسفة والحكمة. فهو فى أكثر ما يقوله منطق. فانظر إلى مثل قوله فى مدح سيف الدولة، تجده يتدرّج بعقلك فى سُلّم من المنطق، فينقله من دَرَجة إلى التى فوقها نقلا دَمِثاً حثيثاً، لا حزُونَة فيه ولا تعريج:

وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ، وَاللَّيْثُ وَحْدَه

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ اللُّيُوثُ لَهُ صَحْبَا؟

وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ، وَهْوَ مَكَانَهُ

فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَّا؟

ترى فى حكمة المتنبى، ومنطقه العقلى فى غير الحكمة مظهرا جليلا لعبقرية فكره، وهذا المظهر - على جلاله - شفاف لا يحول بيننا وبين اكتناه الأسرار التى تلمع من ورائه.

ألا تلمح من وراء هذا المظهر الذكاءَ الفطرىَّ الذى يتوهج توقده، والذى ينفذ إلى ما جال بالنفوس من سرائر، وما جاش بالقلوب من عواطف، وما

سرى فى الضمائر من خواطر ، وما خفى فى الخليقة من غرائز ، كأنما باحت له الطبائع بمكنوناتها فرآها رأى العين ؟

ألا تلمح بجانب ذلك الذكاء الحاد قوة ملاحظة لا تفلت منها سانحة ، ودقة موازنة لا تخفى عليها خافية ، وصحة حكم لا يشينه خطل ولا اضطراب ؟

ألا تلمح أن ذلك الذكاء قد صقله التعلم فى الصبا ، وقدحته التجارب فأورثته ؟

ألا تلمحه يتألق فى معمعة تلك الحياة الكادحة التى قضاها المتنبى فى تجواله بين الفسطاط ، وشيراز . واتصاله بالملوك والأمراء والوزراء ، وبالبدو والحضر ، ومناضلته حساده وأعداءه ، ومقاساته صروف الدهر ومصائبه ، والذكاء فى كل ذلك يكسب المتنبى ثروة فكرية جمعت بين الغزارة والنفاسة ؟

ذلك الذى تلمحه هو سر النبوغ الفكرى عند المتنبى .

عبقريته الشعرية وسرها :

تتجلى هذه العبقرية فى تلك القوة الرائعة التى تمازج شعره ، فى تلك الروح العاتية التى تشوب كلامه ، فى تلك الشعلة المتلظية التى تستعر فى قصائده ، فى تلك الثورة العاصفة التى تقذف بها جوانحه الزافرة فى صورة من الكلام الموزون فنسميها شعرا ، فإذا قرأناه فجّر فى نفوسنا هذه الثورة بعينها ، فوجدنا أنفسنا إلى جانب المتنبى ثائرين ، مستسهلين الموت فى سبيل الكرامة ، قائلين معه :

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السيُوفِ مُكَرَّمًا
تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غيْرَ مُكَرَّمِ

أو مهدّدين معه ملوك زمانه ومردّدين قوله :

أَيَمْلِكُ المُلْكَ ـ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ ... وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ ـ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ ؟
مَنْ لَوْ رَآنِى مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... وَلَوْ عَرَضْتُ لَهُ فِى النَّوْمِ لَمْ يَنَمِ !

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَدًا

وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

أو نزدرى معه من يستحقون الازدراء من الناس فنقول معه :

أَرَى أُنَاسًا ، وَمَحْصُولِى عَلَى غَنَمٍ وَذِكْرَ جُودٍ ، وَمَحْصُولِى عَلَى الْكَلِمِ

وهكذا نشركه فيما اعتلج بصدره من السخط على الأيام والليالى ، والدنيا وأرزائها ، ونقدح معه فى مَهْجُوِّيه وحُسَّاده ؛ ونشاطره الرضا على ممدوحيه ، فنسبغ عليهم من صفات المدح مثل ما أسبغ هو عليهم من صفات نفسه الطاحة ، المعتدة بشرفها لا بأصولها ، والمشغولة عن جمال الغوانى بجمال المعالى ، فننشد معه قوله فى ممدوحه :

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيفٍ وَلَوَ انِّى لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازِى

شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ الْمَعَالِى عَنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ

وأما سرّ هذه القوة ، فهو ذلك الشعور الذى امتزج بنفس المتنبى . وأى نوع من الشعور هذا ؟ أهو الشعور الاجتماعىّ الذى يعطف الإنسان على غيره من الناس ، فيألم لآلامهم ، ويلذّ للذّتهم ، ويخفق قلبه بالرحمة لهم ، وتَسيلُ عبراته إشفاقا عليهم ؟ لا . لا . ليس المتنبى من شعراء العاطفة بهذا المعنى . لأن الشعور الذى غلب على قلب المتنبى هو الشعور المنبعث عن حب المرء لنفسه ، وإن شئت فقل هو الأنانية بذاتها . كان أبو الطيب شرها طماعا .

كان شرها إلى المال لأنه فقير مملق ، ولم يرزق من القناعة قسطا يخفف عنه شدّة الفقر ، ويهوّن عليه وطأته . وكيف تسكن نفسه إلى الإقلال وهو الذى يقول :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالإِقْلَالِ مِنْ شِيَمِى

وكان إلى رفعة الجاه ، وعلو المنزلة ، ونيل أشرف الرتب ، أشرَهَ منه إلى

المال . وشرهه فى هذه الحالة هو ما ندعوه الطموح : إذ الطموح نوع من الطمع الروحى يخالف ما عداه فى الغاية التى يتجه إليها ، والمدى الذى يستشرف إليه .

كان المتنبى أنانيا ، فكان طمّاعاً قصىّ المطامع . وكان مُحسًّا ذلك من نفسه ، كما كان شاعرا بذكائه ، وكفايته ، وعلوهمته ، وفضله فى نفسه على كثير من وزراء وأمراء وملوك عصره . فوسوست إليه مطامعه وآماله : أن ينهض لإدراك مايتطلع إليه ، فلبى ، وقد أعماه الطمع ، وأغراه خياله الشعرىّ ، فحاول ما حاول ، وصادفته العقبات الكأداء ، التى تحطمت على سفوحها مطامحه وآماله ؛ أليس هو القائل :

أَبَداً أَقْطَعُ الْبِلَادَ ، وَنَجْمِى فِى نُحُوسٍ ، وَهِمَّتِى فِى سُعُودِ

رجل تتسع مطامعه إلى امتلاك الدنيا ، وتقف الدنيا فى سبيله تعانده وتطارده ، ويشكو ذلك فيقول :

أَهُمُّ بِشَىْءٍ ، وَاللَّيَالِى كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِى عَنْ كَوْنِهِ ، وَأُطَارِدُ

وليس من نفسه مقنع يقنعه ، بل له منها دائما مثير يثيره ؛ رجل هذا حاله لا بد أن تثور ثائرته على العالم بأسره ، وأن يضطرم صدره حقدا عليه وعلى من فيه .

هكذا كان أبو الطيب : طامحا ثائرا ساخطا ، حانقا على الناس ، حانقا على الملوك ، حانقا على الدنيا ، مزدريا هؤلاء جميعا ، كارها من ينافسه أو يدعى منافسته حتى فى الشعر .

ذلك الشعور الأنانى الثائر هو السر الذى صبغ شعر المتنبى بصبغة هذه العبقرية الإحساسية القوية :

عبقرية الخيال وسرها :

من العجب أن يجمع الرجل بين شاعرية الحقيقة ، وشاعرية الخيال . فإن المعروف أن العقول التى اعتادت الغوص على الحقائق التى لاتدرك إلا بالجهاد العقلى الشاق : من أمثال الحكم الفلسفية ، لا يتوقع منها أن تكون على جانب

عظيم من الخيال . كما أن العقول التى أوتيت من قوّة التخيل حظا عظيما ، لا ينتظر منها أن يكون لها فى أفق الحقيقة سهم راجح . إذ القوى العقلية ليست كالبذور التى تزرع فى أرض واحدة ، تنمو متشاكلة فى القوة إذا كانت الأرض خصبة ، أو فى الضعف إذا كانت الأرض فقيرة من موادّ الغذاء النباتىّ . ولكن اشتداد بعض القوى العقلية يوهن بعضها الآخر . فما بالنا نرى المتنبى قويا فى الجانب الحقيقى ، كما هو قوى فى الجانب الخيالى ، ونراه فى لجة الحقيقة من أقدر الغائصين وأمهرهم فى اصطياد لآلئها الغالية ، من أقصى أعماقها ؛ كما نراه فى أفق الخيال طائرا من أبرع الطائرين ، وأحذقهم فى الوصول إلى آمادها السحيقة ؟

إنّ ذلك عجيب حقا ! ولكن الذى دعانا إلى العجب ، هو بذاته ما يدعونا إلى القول بعبقرية المتنبى ؛ فإن العبقرية لا بد أن تقوم على شىء من الشذوذ ، وإلا كان الناس جميعا عبقريين .

وُلِدَ المتنبى وقد هيأ الله أعصاب دماغه لأن تسلك طريق الحقيقة حتى تصل إلى أبعد غاياتها ، وطريق الخيال حتى تصل إلى أقصى مدَاه . ثم ساقه إلى أسلوب من الحياة لا يقف فى هذا الطريق ، ولا يعترض ذلك ، ولكنه كان مقويا للاستعدادين معا . سعَى المتنبى إلى إدراك ماطمح إليه سعيا مُستَحرًا ، فكان مالقيه فى مسعاه مدرسة لقنته التجارب والعلم بأسرار الحياة ، فكان ذلك مَدَدًا لاستعداده الحقيقىّ ؛ وثار المتنبى على الدنيا ، وكان فى ثورته عصبيا حادّ المزاج ، فكان فى ثورته وعصبيته مَدَدٌ عظيم لخياله . فنمت فيه شعبة الحقيقة على لون من الغذاء يلائمها ، ونمت فيه شعبة الخيال على لون آخر يناسبها ، فجمع بين القوتين على تباعدهما فى الجوهر ، واختلافهما فى الكُنْه ، وتباينهما فى الأثر .

وللمتنبى فى خياله افتتان كثير . فقد يغير من طبيعة المحسوس ، ويحملك ألاّ تلتمسه بالحواس ، كما تعودت وألفت ، بل تلتمسه بالسبيل التى تدرك بها المعنوىّ ، فيجعله أمامك ضربا من ضروب المعقولات ، وقد يبرز لك العاطفة السارية فى القلب ، والخاطر الجائل فى العقل ، فى صورة لا تكلفك إلا أن تفتح عينيك ، أو ترهف أذنيك ، ولا تكلفك شحذ العقل ، وإيقاظ الفكر ، واستنهاض الفهم .

فيجعل أمامك المعقول فنا من فنون المحسوس. وقد يتخيل القلب بشرا سويا فيخاطبه، أو يتصور الناقة ممن يتملكه العجب فيضحك، أو يتوهم حصانه فيلسوفا ينقد الناس ويسفه آراءهم، ويرميهم بالحمق والجهل.

وأكثر ما يفرغ المتنبي خياله في قالب الاستعارة. وهي في ديوانه كثيرة منبثة في كل مكان، وله في صوغها إبداع وإحكام، حتى لاتكاد ترى شاعرا غير المتنبي كثير الاستعارة، حاذقا في تصوير خياله بها.

انظر إليه وقد خَالَ النوى تحب وتعشق، ويسقمها الوجد والغرام:

مَلاَمِي النَّوَى فِي ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ
لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ السُّقْمِ

ثم انظر إليه وهو يتخيل أن الهلوع يتحرك ويُسيَّر كما تسير الجيوش:

إِذَا مَالَمْ تُسِرْ جَيْشاً إِلَيْهِمْ أَسَرْتَ إِلَى قُلُوبِهِمِ الْهُلُوعَا

ثم اعجب له وهو يتخيل أن النفوس — وهي المخلوقات الروحية — ليست إلا ماء الدموع الذي يسيل من الآفاق عند البكاء:

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ، فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الآمَاقِ؛ وَالسَّمُ أَدْمُعُ

ثم استمع إليه وهو يصغي إلى حصانه إذ يلومه على ترك شعب بوّان:

يَقُولُ بِشِعْبِ بَوَّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطِّعَانِ؟

والأمثلة للخيال كثيرة في شعر المتنبي، فمن شاء الاستزادة فليرجع إليه.

وقد عرف المتنبي المبالغة، وكانت مبالغاته مما فتح عليه باب النقد للناقدين، وسهل للمتحاملين عليه سبيل المغامز والمطاعن.

المبالغة ضرب من ضروب الخيال. وكيف ذلك؟ إنها ترتكز في أصلها على سند من الحقيقة، أو — بعبارة أخرى — تلتف حول نواة من الحقيقة. فإذا صورنا الشيء في حجمه المقسوم له، فلم نفخمه، ولم نصغره، كنا بذلك قد أبرزناه في ثوب الحقيقة غير باخسين أو محابين. وفي هذه الحالة غَلَبَتْنَا يد الخيال، وحلنا

بينها وبين العبث بهذه الحقيقة . فإذا أردنا أن نبالغ سلطنا على الشيء نوعا من التصور ينفخ فيه من روحه حتى يَمْتَطّ ويشغل غير حيِّزه ، أو يضغطه بقوته حتى يَدِقّ ويشغل أقل من حيزه . وليس بين القُوَى الدماغية ما يقوم بمثل هذا التصور الذى لا ترتبط حدوده بحدود الحقيقة ، ولا يكون أثره فى جوهره ممثلا للحقيقة - إلا القوة المخيلة . فالمبالغة إذن أثر من آثار الخيال ، ولكن الخيال الطاغى .

والمبالغة - على الرغم من أنها لا تمثل الحقيقة - قد تكون طريفةً ، باعثة لشيء من الإعجاب بمدى تصور الشاعر ، عارضة على العقل صورة من الصور الغريبة ، التى يطرب لها ويبعث صاحبه على الضحك . فتعتبر المبالغة من هذه الجهة نوعا من الطُّرَف الفكاهية السارة . وللمتنبى كثير من المبالغات الطريفة التى يطرب لها الأدباء ، حتى إن ناقديها لا يستطيعون أن يحولوا بين أنفسهم وبين هذا الطرب ، ولكنهم يتغاضَوْن عنه ، ويسترسلون فى نقدهم لها ، ناظرين إليها بعين المنطق الفكرى ، وانطباقه على الواقع . وفات هؤلاء أن هذا المعيار تقاس به المسائل العلمية ، أما الصور الأدبية فمقياسها ما تحدثه فى النفس من طرب وإعجاب

لماذا نعد من التفكه والتسلية وترويح النفوس ، ما تقع عليه أنظارنا من المبالغات الحسية ، كرؤية وجوهنا مصغرة أو مكبرة فى المرايا المصغرة والمكبرة ؛ ولا نعد من هذا القبيل ما يُعْرَض على عقولنا من المبالغات الخيالية ؟ فلتكن الأولى مسرة للعيون ، ولتكن الثانية مسرة للعقول .

ألا نجد نوعا من التسلية عند ما نقرأ مثل قول المتنبى يصف هزاله :

كَفَى بِجِسْمِى نُحُولاً أَنَّنِى رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطَبَتِى إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِى

أنستطيع ألاّ نبتسم إذا تصورنا المتنبى يقف أمامنا فلا نحس وجوده لأن الهزال قد محق أكثره ، ولا نستطيع أن نراه إلا إذا نَبَّهَنَا إلى وجوده بالكلام ، فعند ذلك نُحَدِّق إليه ، ونبحث عنه بأبصارنا حتى نعثر عليه كذرة عالقة فى الهواء ؟

عبقريته فى الأداء وسرها :

كما يختلف المصورون فى تصوير شيء واحد يعرض عليهم ، ويتفاوت عملهم فى درجته ، كذلك يختلف الشعراء فى تصوير الخواطر الماثلة فى نفوسهم اختلافا عظيما . وكما أن أجمل الصور هو ما طابق المصوَّر تمام المطابقة ، كذلك أجمل أساليب الكلام ما أبرز الخواطر النفسية فى صورة تلائمها تمام الملاءمة .

وللمتنبي فى هذا الباب مكانة عالية ، فإنه يضع كلماته وضعا محكما يلائم المعنى الذى يعبر عنه ، حتى لقد قال أبو العلاء المعرى : إنه حاول طويلا أن يبعد كلمة من كلمات المتنبي ، ويضع مكانها أخرى مع المحافظة على سلامة المعنى والأسلوب من كل النواحى ، فرأى ذلك من المستحيل . وشهادة مثل هذا الأديب الناقد ، لها فضلها وقيمتها فى هذا المقام .

ديوان المتنبي قاموس نفيس لمتخير الألفاظ الجزلة ، ولأروع أساليب اللغة العربية وأفخمها .

ويقل أن ترى بين أساليبه أساليب محفوظة ، لأنه متصرف فى الكلام ، كثير الابتكار . ولذلك نعده من المجددين فى فن الأداء .

وإذا شئت تحقيق ذلك فارجع إلى ديوانه ، ووازن بين تعبيره وتعبير البارزين من الشعراء ، فإنك - لابد - واجد أنهم يكادون يسيرون على نمط مألوف على حين تراه يَفْتَنُّ ، ويقلب الكلام على وجوه جديدة لا تراها لغيره ، ولا يستطيعها سواه .

وفى ديوانه طائفة من الألفاظ الغريبة التى تدل على سعة اطلاعه اللغوى ، وعلى كثرة ما حفظ من مفردات اللغة . وللفترة التى قضاها بالبادية فى ذلك أثر عظيم .

وليس فى شعره لحن ، ولا نبوٌّ عن الذوق العربى ، ولا خروج على قوانين اللغة ، مما يدل على أنه درس علوم العربية لعهده ، وحذقها تمام الحذق . وكيف يلتأ بالكوفة ولا يتثقف بهذه العلوم ، وهى من معاهدها الجليلة ؟

وقد أخذت عليه مآخذ نحوية ولغوية وبلاغية قليلة، ولكن هذا القليل لا ينقص من قدره، فإن الكمال لله وحده.

وجملة القول أن ديوانه يعد فى الأدب العربى معجزة الشعر الجزل، كما يعد ديوان البحترى معجزة الشعر الرقيق.

هذا مظهر عبقريته الأدائية، يحمل فى مطاويه أسرار هذه العبقرية، ويرينا أن المتنبى قد رزق استعداداً فطريا للأداء البليغ، تمده حافظة قوية مزودة بثروة طائلة من ذخائر اللغة، وتنجده ذاكرة مسعفة تلبيه إذا دعاها، وتسيطر عليه سلامة ذوق يتخير بها اللفظ، ويسبك الأسلوب، وتجنبه الخطأ خبرة واسعة بعلوم اللغة وقوانينها. وتقويه الممارسة المبكرة لقول الشعر، ومعالجته الطويلة منذ أيام صباه.

وإلى هنا نقف الكلام فى أسرار عبقرية المتنبى؛ لأن الكلام قد طال. ومع ذلك الإطناب لا أظن أنى بلغت النهاية فى إيفاء البحث حقه، لأن تلك الشخصية الكبيرة، لا تستطيع الأقلام أن تشرحها تشريحا دقيقا فى أمثال هذه المباحث السريعة التى تخطفها منا الفرصة السانحة خطفا وَحِيًّا. ويا ليت شعرى هل تقر عشرة القرون القابلة، بنبوغ المتنبى ذلك النبوغ الذى أقرت به عشرة القرون المودعة؟ نعم، إن التراث الذى خلفه المتنبى لا تزول روعته على مر الزمان، ولا تتضاءل بهجته مهما توالت الحضارات الزاهية الناضرة. فان جماله جمال خالد ما خلدت الدنيا، وما دام فى الكون عقل يدرك سر الجمال، جمال مَصْدَرُه المواهب الروحية، التى لها نظائرها فى كل روح، فلا غرو إذا أغرمت به كل روح، وحنت اليه حنين الأم الرءوم إلى وحيدها العزيز، جمال نَحْسبه تراث المتنبى، ولكنه تراث العقل البشرى، وتراث العاطفة البشرية، وتراث الخيال البشرى، ولم يكن المتنبى إلا لسانا اختارته الطبيعة البشرية؛ لتعبر به عن غرائزها وسجاياها، فعبر عن ذكائها. وطموحها، وخيالها، وما دام فى الدنيا ذكاء وطموح وخيال - فان الذكاء والطموح والخيال التى كشف عنها المتنبى ستبقى وتدوم.

ذلك هو السر الذى أشغف الناس بشعر المتنبى ، والذى فتن به قلوب معاصريه حتى كاتبه ملوك زمانه ، يستجدون شعره ، ويلتمسون مدحه ، حتى يدون مفاخرهم فى سجل شعره الخالد . ذلك هو السر الذى من أجله تهافت الناس على شعر المتنبى يستقون من فيضه نمير الحكمة ، ويستمدون منه غذاء القوة والخيال ، وينمون ببلاغته فى نفوسهم ملكة البيان ، ويحوكون على منواله نظمهم ، فيلبسونه رداء الحسن والجمال ، وربما سرت نفثاته التى نفثها فى أرواحهم - وهم لا يشعرون - إلى ما يصوغون من البيان ، وربما عمدوا إلى اقتباس كلامه ليزدان به بيانهم . ويشرق أدبهم . ولو أردت أن أسوق لذلك أمثلة وشواهد لما كفتنى هذه الصفحات القلائل .

طه طه عبد الفتاح
مدرس أول للغة العربية بنها الثانوية